عاشوراء

بين صوم السنة وأسس بناء الأمة

[خطبة مفرغة]

فضيلة الشيخ:

هشام بن فؤاد البيلي

حفظه الله تعالى

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرهُ ونعوذ بِاللَّه من شرور أَنْفُسنَا وَمن سيئات أَعمالنَا من يهده الله فَلَا مضل لَهُ وَمن يضلل فَلَا هادي لَهُ، وَأَشْهد أَن لَا إِلَه إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ وَأَشْهد أَن مُحَمَّدًا عَبده وَرَسُوله.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾[1]

﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالًا كَثِيراً وَنِساءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَساءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحامَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[2]

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾[3].

أَمَّا بَعْدُ:

فإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ.

---

[1] سورة آل عمران، الآية: ١٠٢

[2] سورة النساء، الآية: ١

[3] سورة الأحزاب، الآية: ٧٠-٧١

أيها الأحبة المؤمنون والأخوة المسلمون، مع هذا الشهر العظيم المبارك، شهر الله المحرم، نقف وقفة مع إخواننا وأحبتنا، هذه الوقفة أيها الأخوة تنطلق من اهتمامه ﷺ بهذا الشهر العظيم المبارك، الذي حثنا ﷺ على صيامه، وشرع النبي ﷺ صيامه للأمة.

فقد شرع صيامه للأمة، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم -رَحِمَهُ اللهُ- من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ صَلَاةُ اللَّيْلِ**»(١)، رواه الإمام مسلم واللفظ له، ورواه أبو داود والنسائي، والترمذي ورواه ابن ماجة مختصرًا.

ففي هذا الحديث العظيم المبارك أنَّ النبي ﷺ شرع لهذه الأمة صيام شهر الله المحرم، هذا الصيام الذي شرعه النبي ﷺ يبيِّن أن أفضل الصيام بعد رمضان صيام شهر الله المحرم.

وفي هذا إشارة إلى استحباب وسنيَّة صيام هذا الشهر بكامله، ولا يعارض هذا ما صح من حديث عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أن النبي ﷺ: «**لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ ﷺ يَصُومُ شَهْرًا أَكْثَرَ مِنْ شَعْبَانَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ كُلَّهُ**»(٢)، وفي رواية: «**كَانَ يَصُومُ شَعْبَانَ إِلَّا قَلِيلًا**»(٣).

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) صحيح البخاري ومسلم.

(٣) صحيح مسلم.

فهكذا أخبرت أم المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- أنَّ النبي ﷺ ما كان يصوم في شهر بعد رمضان أكثر مما كان يصوم في شعبان، هذه حكاية فعله ﷺ أَمَّا قوله ﷺ في رواية صحيح مسلم بنصه ﷺ: «أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ»[1].

ولهذا قال العلماء: فلعل إخباره ﷺ بذلك إنما كان في آخر حياته ﷺ، ولم يتمكن من صيام ذلك، أو أن النبي ﷺ كان يطرأ له من الطوارئ ما لا يطرأ لغيره، فكون النبي ﷺ لم يثبت من فعله أنه صام شهر الله المحرم بكامله، فإن ذلك لا يدل على أنه يتقدم صيام شعبان عليه، بل قوله ﷺ مقدم على ما ورد من حكاية فعله، بأبي هو وأمي ﷺ.

وعليه: فيكون المقطوع به أنَّ أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأنه لم يرد تخصيص في أنه يصام إلا قليله كما جاء في صيام شعبان، وإنما النبي ﷺ أطلق.

وعليه: فلو صام الإنسان شهر الله المحرم كله لكان مصيبًا للسنة لقوله ﷺ.

فعلى كل حال أيها الأحبة، ثبت فضيلة صيام هذا الشهر المبارك بنصِّ حديث رسول الله ﷺ، لكنَّ آكد الأيام التي تصام في هذا الشهر العظيم؛ تاسوعاء وعاشوراء.

---

(١) صحيح مسلم.

أما عاشوراء فقد ورد فيها النص أيضًا القولي عنه ﷺ، ففي صحيح الإمام مسلم من حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ: «سُئِلَ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ عَاشُورَاءَ؟ فَقَالَ: يُكَفِّرُ السَّنَةَ الْمَاضِيَةَ»[1].

وجاء أيضًا في الصحيحين من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء فقال ذلك، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كما في الصحيحين: «قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَدِينَةَ فَرَأَى اليَهُودَ تَصُومُ يَوْمَ عَاشُورَاءَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟، قَالُوا: هَذَا يَوْمٌ صَالِحٌ هَذَا يَوْمٌ نَجَّى اللَّهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ عَدُوِّهِمْ، فَصَامَهُ مُوسَى، قَالَ: فَأَنَا أَحَقُّ بِمُوسَى مِنْكُمْ، فَصَامَهُ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ»[2]، بل جاء عند مسلم ما يدل على تحري النبي ﷺ عن صيام يوم عاشوراء، فقد سئل ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن صيام يوم عاشوراء فقال: «مَا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَحَرَّى صِيَامَ يَوْمٍ فَضَّلَهُ عَلَى غَيْرِهِ إِلَّا هَذَا اليَوْمَ، يَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَهَذَا الشَّهْرَ يَعْنِي شَهْرَ رَمَضَانَ»[3]، فأفضل الصيام على الإطلاق صيام رمضان لأنه صيام فريضة، وقد أوجب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على الأمة صيامه، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[4].

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) صحيح البخاري ومسلم.

(٣) صحيح البخاري ومسلم.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٥

أما عاشوراء أيها الأحبة فلقد كان صيامه واجبًا قبل رمضان، فلما فرض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صيام رمضان نسخ الله -عَزَّ وَجَلَّ- وجوب صيام هذا اليوم وبقي صيامه مستحبًّا ولهذا كان النبي ﷺ يتحراه دون سائر الأيام.

ثم إنه ﷺ ثبت عنه كما جاء في الصحيح قال: «لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ»[1]، ومات النبي ﷺ ولم يصم التاسع.

فكان حاصل السنة الواردة والمأخوذة من مجموع الأحاديث فضيلة صيام عاشوراء وتاسوعاء، لأن النبي ﷺ إنما أراد أن يخالف بذلك ما عليه صيام غير المسلمين حينما كانوا يصومون يوم عاشوراء، فأراد النبي ﷺ أن يخالفهم ففال: «لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى قَابِلٍ لَأَصُومَنَّ التَّاسِعَ»[2]، مخالفة لما عليه اليهود في صيام عاشوراء والاقتصار على ذلك.

ولهذا السنة الكاملة المأخوذة من مجموع النصوص أننا نصوم يوم تاسوعاء ونصوم كذلك يوم عاشوراء، ويوم تاسوعاء على حسب ما أخبرت به الجهات الرسمية عندنا في بلادنا، ونحن نتقيد بذلك كما نتقيد بهذا في صيام رمضان والخروج من رمضان فيكون الناس ملزمين بما تراه الجهات المسئولة المعنية طالما أنها تعتمد رؤية الهلال..

---

(١) صحيح مسلم.

(٢) صحيح مسلم.

هذا الصيام أيها الأحبة الذي وردت فضيلته في شهر الله المحرم، ثم ركز النبي ﷺ وأكد من صيام المحرم على صيام عاشوراء وتاسوعاء، هذا له بُعْد عظيم، وتلك الوقفة التي ينبغي أن نقف عندها.

أيها الأحبة إنَّ أمة الإسلام أمة ريادة، أمة عظيمة، أمة ليست تابعة لأحد من البشر، ولا سالكة مسلك أحد ممن سبقها من الأمم، إنما هي أمة استقلت بوحي عظيم نزل على النبي ﷺ رسول الله ﷺ، النبي الأمين، نزل الوحي عليه، وشرع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ شريعة عظيمة، هذه الشريعة المباركة قامت على التميز، لهذا كانت هذه الأمة المباركة خير أمة أخرجت للناس، أمة محمد ﷺ خير أمة على الإطلاق منذ أن خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ آدم عليه السلام وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إلى نبوته ﷺ، هذه الأمة أفضل الأمم.

ولكن لابد أن نعلم أن حيثيات هذه الفضيلة العظيمة لهذه الأمة المباركة إنما حيثيات قامت على أمور لابد أن نتفطن إليها، لم يفضلها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على سائر الأمم لأنها أمة عربية، أو لأن نبيها هاشمي، وإنما فضلها على سائر الأمم بأمور ينبغي أن نلتفت إليها وأن نقف عندها، فما أحوجنا في هذه الأزمان التي تلاطمت فيها أمواج الفتن، والتي اختلطت فيها المفاهيم، والتي حصلت فيها ما حصل، لابد ونحن في هذه الأيام أن نتفطن لهذه الأمور، وأن نتمسك بالقواعد والأصول، وأن يعلم الإنسان أن عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأن

وجوده في الحياة ينبغي أن يقوم على عبودية سالمة من كل شبهة، وأن يقوم أمره على فهم وعلى بصيرة وعلى فرقان، فلا يتلاعب أحد بعقله، ولا يستدرجه أحد على هاوية لا ينبغي أن يسلكها، وإنما يعبد الله على بصيرة، يعبد الله -عَزَّ وَجَلَّ- بعلم.

ولهذا عرفنا الله وعرفنا رسوله وعرفنا دين الإسلام كل ذلك بالأدلة، فلئن سألتني من ربي أجبتك بالأدلة، ولئن سألتني من نبيي أجبتك بالأدلة، ولئن سألتني عن فضائل هذه الأمة أجبتك بالأدلة المأخوذة من كتاب الله ومن سنة رسول الله ﷺ.

ما أحوجنا إلى تلك البصيرة، وما أحوجنا إلى معرفة الفرقان، وما أحوجنا إلى أن نعبد الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على نور وبيِّنة، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾[1]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾[2].

تعالوا أيها الأحبة نعيش في هذه الدقائق المعدودة المعلومة، حتى تكون معرفتنا بفضيلة هذه الأمة مبنية على أسس متينة، ومبنية على علم راسخ.

إن فضيلة هذه الأمة إنما ترجع لما شرع الله -عَزَّ وَجَلَّ- لها من تشريع عظيم ومن شريعة سمحة قائمة على التوحيد وعلى السهولة وعلى اليسر.

---

[1] سورة يوسف، الآية:١٠٨

[2] سورة الأنفال، الآية:٢٩

فضيلة هذه الأمة ترجع إلى نبيها الذي جعله الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أفضل الأنبياء، فأفضل الأنبياء نبينا محمد ﷺ.

راجعة إلى أن كتابها أعظم الكتب على الإطلاق، وهو مهيمن على كل الكتب، وهو كتاب الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ القرآن.

قائمة على أنَّ شريعتها أعظم الشرائع وأفضل الشرائع على الإطلاق لأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جعل فيها من التيسير والسهولة واليسر ما لم يكن في شريعة سابقة.

وزد على ذلك أن هذه الأمة ترجع فضيلتها أيضًا نظرًا لعملها الصالح إلى آخر الزمان على نور وبصيرة وبيِّنة، كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**»[1].

فبقاء هذه البصيرة في هذه الأمة جعلها خير أمة في الآخرة، فهي أكثر الأمم في الجنة، ولقد صح بذلك الحديث كما جاء عند مسلم من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «**أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ...**»[2]،

---

(١) صحيح البخاري ومسلم.

(٢) صحيح البخاري ومسلم.

نصف أهل الجنة كما في رواية مسلم من هذه الأمة المباركة وهذا راجع إلى ديمومة العمل الصالح، وإلى ديمومة الفرقان في هذه الأمة المباركة، بل جاء في خارج الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ، ثَمَانُونَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ»[1].

أي بمجموع النصوص فهذه الأمة في الجنة تبلغ ثلثي أهل الجنة، وما ذلك إلا لعملها، إلا لبصيرتها، إلا لقيام الحق فيها إلى آخر الزمان، فلا يرفع الحق من هذه الأمة، بل يبقى الناطق به ولو زادت الغربة، ولو اشتدت في أي عصر من العصور فإن بقاء الحق والحمد لله باقٍ في هذه الأمة إلى آخر الزمان.

أيها الأحبة، لقد ربى النبي ﷺ هذه الأمة وأسس النبي ﷺ على أسس عظيمة، حتى يتبع الدعاة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى هذه الطريقة، فتبقى هذه الطريقة في أمة النبي ﷺ إلى آخر الزمان:

الأساس الأول الذي ربى النبي ﷺ عليه الناس وأسس عليه هذه الأمة هو أساس التوحيد:

(١) رواه الترمذي في سننه وصححه الألباني رحمه الله

أساس التوحيد، هذا التوحيد الذي جاء به النبي ﷺ أولًا، فلم يأت النبي ﷺ أولًا بالأمر بالصلاة، أو بالأمر بالصيام، أو بالأمر بالزكاة أو غير ذلك، ما قال: أقيموا الصلاة، ولا قال: آتوا الزكاة، ولا قال: صوموا رمضان، إنما كان الأمر الأول الذي جاء به النبي ﷺ والذي أُمِر به أساسًا، هو ما قاله الله -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[1]، ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ﴾[2]، أي عن الشرك، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾[3]، أي عظمه بالتوحيد، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[4]، أي طهر أعمالك من الشرك، ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[5]، أي اترك الأصنام، وعبادة الأصنام، والتوجه إلى الأصنام، فجاء النبي ﷺ وأُرسل بهذه السورة العظيمة المباركة التي تقرر التوحيد.

وما هو التوحيد؟

التوحيد: هو إفراد الله -عَزَّ وَجَلَّ- بالعبادة والطاعة، فلا يُعبد سواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهذا معنى قول: "لا إله إلا الله" أي: لا معبود حق إلا الله، فلا يعبد إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

[1] سورة المدَّثر، الآية:١-٥

[2] سورة المدَّثر، الآية:١-٢

[3] سورة المدَّثر، الآية:٣

[4] سورة المدَّثر، الآية:٤

[5] سورة المدَّثر، الآية:٥

فإلى من نتوجه؟ ومن ندعو؟ ومن نسأل؟ ومن نرفع إليه أكفَّ الضراعة؟ من هو لأزماتنا؟ من هو لضرنا ونفعنا؟ من هو لحاجاتنا؟

أليس ربي سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ القائل في محكم كتابه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدُيرٍ﴾[1]؟

أليس ربي القائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[2]؟

أليس ربي القائل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[3]؟

أليس ربي القائل: ﴿وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين﴾[4]؟

أليس ربي القائل: ﴿فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِين﴾[5]؟

أليس ربي القائل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين﴾[6]؟

أليس ربي القائل: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَر﴾[7]؟

---

(١) سورة الأنعام، الآية:١٧

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٦

(٣) سورة البقرة، الآية: ٦٠

(٤) سورة المائدة، الآية:٢٣

(٥) سورة آل عمران، الآية:١٧٥

(٦) سورة الفاتحة، الآية:٥

(٧) سورة الكوثر، الآية:٢

أليس ربي القائل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[1]؟

أليس نبيي القائل وقد ربى صغار الأمة قبل كبارها حينما أردف عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ خلفه، كما عند الترمذي فكان من كلماته التي خاطب بها الصغار كما خاطب بها الكبار، أن قال: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»[2]، هذا منهاج نبوي، يعلمه النبي ﷺ من لم يبلغ بعد، بكيف بالكبار رجالًا ونساءً؟!

كيف بقادات المعارك؟ كيف بأئمة المساجد؟ كيف بهؤلاء جميعًا؟

إن النبي ﷺ ربَّى الأمة على هذا، ولهذا كانت أول كلمة يدخل بها الإنسان الإسلام، ويبقى بها على الإسلام إلى نهاية حياته، وإذا أتى بناقض من النواقض انهدم إسلامه؛ كلمة

---

[1] سورة الأنفال، الآية:٩

(٢) رواه الترمذي في سننه وصححه الألباني رحمه الله

التوحيد، فأول حيثية من حيثيات فضائل هذه الأمة وأول أساس ربى عليه النبي ﷺ هذه الأمة أمر التوحيد يا إخواني.

لماذا نلجأ إلى قبور موتى؟ لماذا ندعوهم من دون الله؟ لماذا نذهب إلى قبر فلان وعلان, ونطوف حوله، ونرجو ما عنده، ونسأله وهو ميت لا يشعر؟

كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾[1]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[2].

هؤلاء الأموات أجابوا أحدًا؟ لبُّوا نداءً؟ فرجوا كربًا؟ أزالوا همًّا؟

ما حصل لهم شيء من ذلك، فعلام نترك الواحد الأحد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي يعلم السر وأخفى؛ علام ندعه ونلجأ إلى قبور موتى ندعوها من دون الله؟

---

(١) سورة النحل، الآية: ٢١

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٤-٩٥

واعلموا يا عباد الله أن الذين يدعون هؤلاء من دون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بتفريج الكرب أو زوال الهم، الذي ينذرون لهم ويذبحون عند قبورهم ويطوفون حولها، هؤلاء إذا قامت عليهم حجة الله وبُلِّغوا دين الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ فأصروا على ما هم عليه، ما هم بمسلمين.

الأساس الثاني الذي ربى عليه النبي ﷺ هذه الأمة، أساس الإخاء.

أساس الإخاء، قبل أن يقاتل النبي ﷺ بعدما ربَّى أمته على العقيدة، قبل أن يُشرع الجهاد ربى النبي ﷺ المجتمع المسلم على أن يكون مجتمعًا كالجسد الواحد، لهذا قال ﷺ في الحديث الصحيح: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[1].

أيها الأحبة، مجتمعنا جسد واحد، أنت يدي وأنا يدك، أنت قلبي وأنا قلبك، كلنا جسد واحد لا فرق بين أبيض وأسود وأحمر، لا فرق بين غني ولا فقير، ولا فرق بين حاكم ومحكوم، كلنا جميعًا كالجسد الواحد.

أراد النبي ﷺ قبل أن يرفع سيفه وقبل أن يغزو غزوة، وقبل... وقبل... أن يربي المجتمع المسلم على أساس متين من الإخاء، من المودة، من الرحمة، حتى جعل النبي ﷺ من فرَّج عن أخيه كربة كما جاء في الحديث الصحيح، فرج الله -عَزَّ وَجَلَّ- كربة من كرب

(١) صحيح مسلم.

يوم القيامة، ومن يسر على مسلم يسر الله -عَزَّ وَجَلَّ- عليه، والله -عَزَّ وَجَلَّ- وجل في حاجة العبد ما كان العبد في حاجة أخيه.

لقد كان يؤلم النبي ﷺ أن يأتيهم فقيرٌ يسأله حاجةً، حتى أنه كان يهتم له ويهتم، كما جاء في الصحيح من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: ﴿اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [الحشر: ١٨] «تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ» قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا، بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ، كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ

سُنَّةً سَيِّئَةً، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[1].

مجتمع واحد، ولُحمة واحدة، لا فرق بين أبنائه، لا في العقيدة؛ فعقيدتنا واحدة، قبل الجماعات والفِرق، قبل الأحزاب، لم تكن عقيدة الصحابة إلا عقيدة واحدة، هي عقيدة الحق، هي عقيدة التوحيد، هي ما قاله النبي ﷺ، فاعتقدوا في الله ما قاله الله وما قاله رسول الله، واعتقدوا في دين الله ما قاله الله وما قاله رسول الله، عقيدة واحدة، لم يكن على عهد النبي ﷺ تلك الجماعة وتلك الفرقة، وكل فرقة من الفرق فرحة بما عندها، وإنما كان المسلمون جماعة واحدة كما كانوا جسدًا واحدًا في العطاء وفي المحبة وفي المودة، فكانوا عقيدة واحدة، لم يكن هناك فرق بين عقيدة الصديق والفاروق، ولا بين عقيدة أهل بدر وأهل أُحد، إنما هم أمة واحدة.

فقد يقول القائل: هؤلاء مهاجرون وهؤلاء أنصار.

نقول: لم يكن التفريق بين المهاجرين والأنصار، قائمة على جماعتين بل هما جماعة واحدة، وإنما قام على أساس ما قاموا به من عمل فاضل، ومن عمل جليل، أَمَّا المهاجرون فكان

(١) صحيح البخاري ومسلم.

عملهم العظيم هو الهجرة إلى الله وإلى رسوله، وأما الأنصار فكان عملهم العظيم هو أن نصروا الله ورسوله، وآوَوْا رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين.

إذًا أيها الأحبة، أسَّسَ النبي ﷺ بناء هذه الدولة على الإخاء، فأول ما هاجر آخى بين المهاجرين والأنصار، فلا فرق بين مكي هاجر ولا بين مدني استقبل، إنما الطعام واحد، فكان الأنصار يقسمون طعامهم بينهم وبين المهاجرين، حتى إن الرجل لو كان له امرأتان أو زوجتان خير أخاه –قبل الحجاب– أن يختار إحداهما فيطلقها ليتزوجها.

أنصار يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومهاجرون في كامل العفة كما حصل من عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لأخيه الأنصاري: بارك الله لك في مالك ولكن دلني على السوق.

متى كان التمايز بين المسلمين، ربى النبي ﷺ الأمة على هذا الإخاء، لا يمكن أن نكون أمة قوية، أمة ريادة إلا إذا كنا جماعة واحدة، طائفة واحدة، بيننا من الإخاء والمودة والمحبة ما بيننا حتى وصل الأمر إلى أن النبي ﷺ قال يومًا لما جاءه أحد الفقراء، فقال النبي ﷺ ولم يكن عنده شيء في هذا اليوم، قال: «مَنْ يُضِيفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللهُ؟، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: أَنَا، يَا رَسُولَ اللهِ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى رَحْلِهِ»، فلعل عنده من اللحم، ولعل عنده من الطعام ما يكفيه وأولاده وضيفه، ولكن انظروا أيها الأحبة، والحديث معروف ولكننا

في حاجة إلى تذكير، «فَقَالَ لِامْرَأَتِهِ: هَلْ عِنْدَكِ شَيْءٌ؟ قَالَتْ: لَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي»، أيها الأحبة، كن مكان هذا الرجل ليس في بيتك إلا كسرات لصبية، يتألم الإنسان ولا يرضى أن يتألموا، يجوع الإنسان ولا يرضى أن يجوعوا، أليس كل واحد منا يصبر على لواء الجوع والعطش وعلى لواء العري والألم، لكنه لا يريد أن يرى ذلك في ولده، لم يكن عندهم طعام إلا طعام الأولاد، فماذا كانت النتيجة؟ أن قال للضيف معتذرًا: ليس عندنا إلا كذا؟ لا و الله، وإنما قال لامرأته: «عَلِّلِيهِمْ بِشَيْءٍ، فَإِذَا دَخَلَ ضَيْفُنَا فَأَطْفِئِ السِّرَاجَ، وَأَرِيهِ أَنَّا نَأْكُلُ، فَإِذَا أَهْوَى لِيَأْكُلَ، فَقُومِي إِلَى السِّرَاجِ حَتَّى تُطْفِئِيهِ، قَالَ: فَقَعَدُوا وَأَكَلَ الضَّيْفُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، نزل الوحي على رسول الله ﷺ، من الذي رأى الرجل، من الذي علم حاله، من الذي أبصره وعلم ما في قلبه، أرسول الله؟

لا، فإن النبي ﷺ لا يعلم الغيب، ولكن الله من فوق سبع سموات أخبر النبي ﷺ وأنزل عليه الوحي بذلك فكانت النتيجة أن قال رسول الله ﷺ للناس، من الذي ضيف الرجل بالأمس، فقال الرجل أنا يا رسول الله، وكأنه شعر لعله قصر في شيء من ذلك، فقال النبي ﷺ: «قَدْ عَجِبَ اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ»[1].

(١) صحيح مسلم.

ربى النبي ﷺ على أساس الإخاء، لابد أن نتآخى ولهذا النبي ﷺ أمر من طبخ مرقة فليكثرها وليتعاهد إخوانه، هل تعاهدت مسكينًا؟ هل طرقت باب فقير؟ لماذا لا نعتبر الفقراء والمساكين والمحاويج من إخواننا كأنهم أنفسنا تمامًا، لا فرق بيننا وبينهم؟

إذًا الأساس الثاني بعد توحيد الله -عَزَّ وَجَلَّ- الذي ربى النبي ﷺ عليه أمة الإسلام هو أساس الإخاء.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين، أيها الأحبة:

الأساس الثالث: الذي ربى النبي ﷺ عليه أمة الإسلام هو ربط أمة الإسلام بالآخرة:

إن النبي ﷺ لم يعش في الدنيا يجمع ويحصل، ليربي أصحابه على التعلق بها، بل لطالما ربى النبي ﷺ أصحابه على الزهد فيها، نحن لا نطلِّق الدنيا طلاقًا بائنًا فلا نعمل ولا نعمِّر، إنما نعمل، إنما نعمِّر، إنما نزرع، إنما نصنع، إنما نقود الدنيا لو استطعنا، ولكن كل ذلك والإنسان يعلم أنه عن الدنيا راحل، وأنه إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- قادم، إنما الحياة الحقيقية هي

الآخرة، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1]، الخاسر يومها: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾[2]، إن هذه الحياة الدنيا معبر أيها الأحبة، طال أو قصر. فإلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- المرجع، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في محكم كتابه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[3]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ﴾[4]، لبثوا يومًا أو بعض يوم هذه خلاصة الدنيا التي يعيشها الإنسان.

الربط بالآخرة يزهد فيها، الربط بالآخرة يقلل من التنافس من أجلها، الربط بالآخرة يفجر معاني الأنس بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا تقاتل أخاك من أجل درهم ولا دينار، ولا تعاديه من أجل دنيا زائلة، كما كان على ذلك صحابة رسول الله ﷺ، ولهذا النبي ﷺ كما ربى على التوحيد الخالص ربى أيضًا على الزهد فيها، فكما جاء في الصحيح عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ، يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ،

---

[1] سورة العنكبوت، الآية:٦٤

[2] سورة الفجر، الآية:٢٤

[3] سورة الروم، الآية:٥٥

[4] سورة المؤمنون، الآية:١١٣

وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[1]، إنما الاختلاف والشقاق والعداء والشحناء والبغضاء والتقصير في طاعة الله والزهد في الجهاد في سبيل الله كل ذلك إنما يرجع إلى ماذا؟

إلى تعلُّقٍ بالدنيا، لهذا فأمر الميعاد كان مع أمر التوحيد تمامًا، فالنبي ﷺ ربى على التوحيد، ثم وضع في الأمة أساس البعث والنشور، وذلك ما كان يأباه المشركون، فلقد كانوا يقولون: إذا مات الواحد فلا يبعث بعد ذلك، وذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- في كتابه حين قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٍ﴾[2].

فربى النبي ﷺ على هذا، ولهذا زهد الصحابة في الدنيا وكان عملهم لله -عَزَّ وَجَلَّ- في الآخرة، فرأينا المساجد ممتلئة، ورأينا ساحات الجهاد يتنافس إليها المتنافسون، ويتسابق إليها المتسابقون، فما يدعو داعي الجهاد حتى يلبي الأصحاب، ولا ينظر أحدهم إلى دنيا زائلة ولا إلى ولد صغير ولا إلى أرض لم تزرع، ولا إلى مال يجمع، وإنما كانوا يملؤون ساحات الوغى، فربى النبي ﷺ على التعلق بالآخرة، التعلق بالآخرة الذي يفجِّر عند الإنسان عبودية الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بجميع الصنوف.

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) سورة يس، الآية:٧٨-٧٩

وأخيرًا أيها الأحبة، ربى النبي ﷺ أمته على أساس عظيم وهو أساس التميز:

أساس التميز، إبراز هذا الدين على وجه لا يختلط فيه حق مع باطل، ولا ظلمة مع نور، إنما الحق الواضح ويدل عليه قوله ﷺ في صيام عاشوراء حينما أتى النبي ﷺ المدينة، فإذا باليهود يصومون يوم عاشوراء، فلما سألهم النبي ﷺ عن ذلك، فقالوا: «**هَذَا اليَوْمُ الَّذِي أَظْفَرَ اللَّهُ فِيهِ مُوسَى، وَبَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى فِرْعَوْنَ، وَنَحْنُ نَصُومُهُ تَعْظِيمًا لَهُ**»(١)، فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن قال: «**نَحْنُ أَوْلَى بِمُوسَى مِنْكُمْ، ثُمَّ أَمَرَ بِصَوْمِهِ**»(٢)، وهذا من النبي ﷺ بيان عظيم أن هذه الأمة أولى بالحق من كل أمة، ولهذا فليس حقنا مختلط بباطل، وإنما حقنا قائم على كتاب ربنا، وعلى وحي الله -عَزَّ وَجَلَّ- وعلى سنة نبينا ﷺ.

فنسأل الله -عَزَّ وَجَلَّ- بمنه وكرمه وعظيم فضله أن يعز أمة الإسلام وأن ينصرنا في كل زمان، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وجزى الله خيرا كل من ساهم في تسجيلها،

أو تفريغها، أو تنسيقها، أو نشرها

(١) صحيح البخاري ومسلم.

(٢) صحيح البخاري ومسلم.